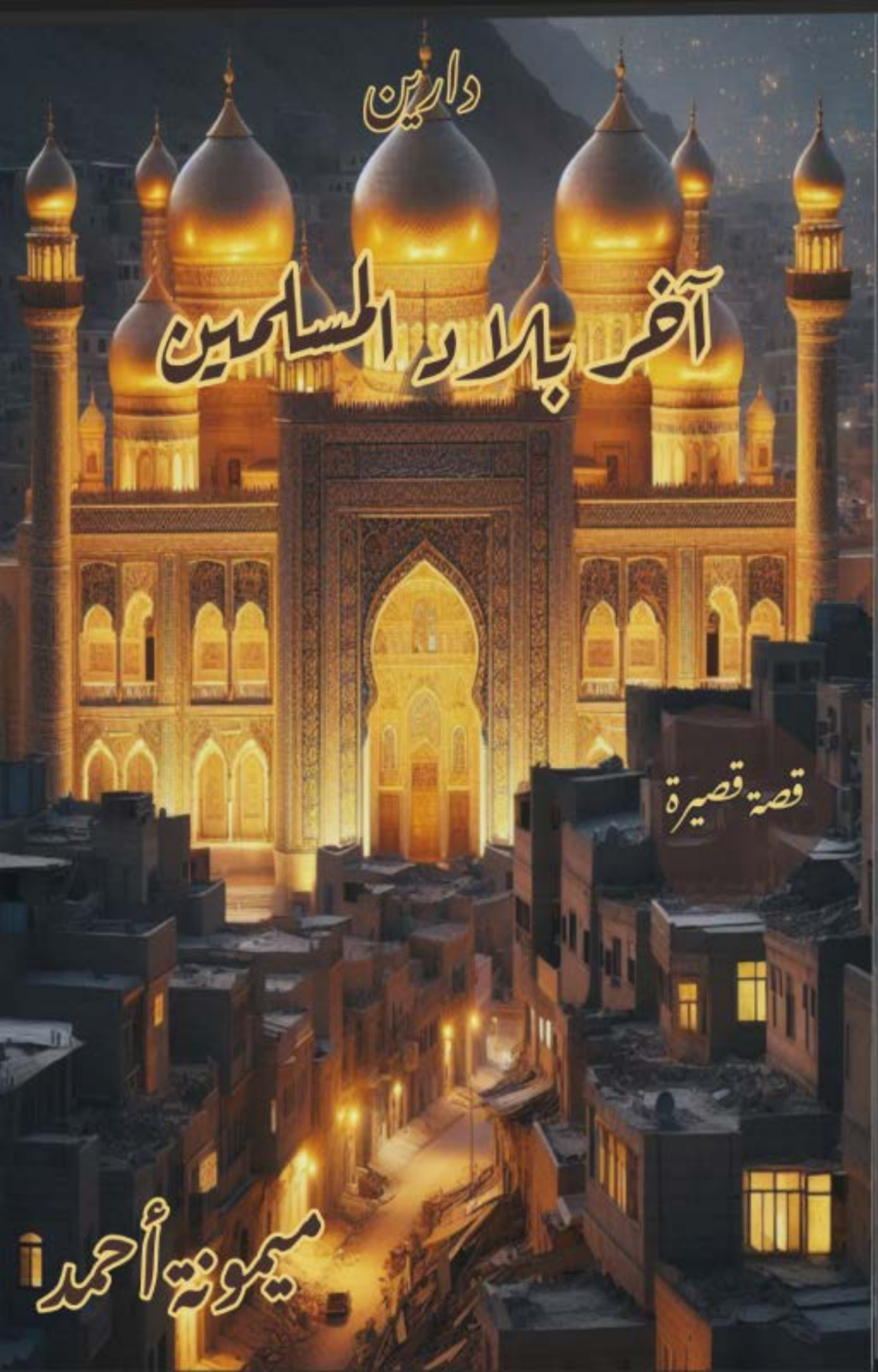
دارين
آخر بلاد المسلمين
قصة قصيرة
ميمونة أحمد

قصة

أخر بلاد المسلمين " دارين"

كتابة :

ميمونة أحمد

تصميم الغلاف:

بسملة أحمد شافعي

تنسيق:

آدم

الإِهْدَاءُ

إلى أرواحٍ عانَقَتِ السَّماءَ قبلَ أوانِها،

إلى مَن غَزَلوا بِدِمائِهم طَريقًا لِلْحُرِّيَّةِ، ثُمَّ مَضَوا تارِكينَ خَلْفَهُم نِداءً لا يَخْبُو،

إلى الشُّهَداءِ الَّذينَ صاروا قَناديلَ في ظُلْمَةِ القَهْرِ، وَجَداوِلَ ضَوْءٍ تَسْقِي الأَرْضَ صَبْرًا،

إلى قُلُوبٍ خَفَقَتْ بِالْحُلْمِ، ثُمَّ سَكَنَتْ لِتَصيرَ صَدًى في ذاكِرَةِ الزَّمَنِ،

إلى سُورِيَا الَّتي ما زالَتْ تَبْكي أَبْناءَها في الأَزِقَّةِ وَالخَرائِبِ،

وَإلى غَزَّةَ، حَيْثُ السَّماءُ مِرْآةٌ لِلأَلَمِ، وَالأَرْضُ شاهِدَةٌ على الطُّهْرِ وَالْعَزيمَةِ.

يا مَن رَحَلْتُمْ وَلَمْ تُبارِحُوا أَرْواحَنا،

يا مَن كَتَبْتُمْ بِالدَّمِ نَشيدَ الصَّبْرِ وَالْمُقاوَمَةِ،

لَكُمُ الْمَجْدُ كُلُّ الْمَجْدِ، وَلَكُمُ الدُّعاءُ سَرْمَدِيًّا،

وَلِأَحْلامِكُمُ الَّتي لَمْ تَكْتَمِلْ، نَعِدُكُمْ أَنْ نُكْمِلَها،

وَأَنْ تَبْقَى أَسْماؤُكُمْ نُورًا لا يَخْبُو في سِفْرِ الْخُلُودِ.

الإِهْدَاءُ الثَّانِي

إِلَى الأَخِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَوْمًا مُجَرَّدَ شَقِيقٍ، بَلْ سَنَدًا حِينَ انْحَنَى ظَهْرِي، وَنُورًا حِينَ أَظْلَمَتْ أَيَّامِي. يَا مَنْ كُنْتَ الجِدَارَ الَّذِي احْتَمَيْتُ بِهِ، وَالصَّوْتَ الَّذِي رَدَّدَ اسْمِي حِينَ كِدْتُ أَنْسَاهُ. هَذِهِ الكَلِمَاتُ لَيْسَتْ سِوَى ظِلَالٍ بَاهِتَةٍ لِمَا يَحْمِلُهُ قَلْبِي لَكَ، فَشُكْرًا لِأَنَّكَ كُنْتَ دَائِمًا هُنَاكَ، حِينَ احْتَجْتُكَ وَحِينَ لَمْ أَطْلُبْكَ، وَحِينَ لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَنَّنِي بِحَاجَةٍ إِلَيْكَ.

إِلَى كَارِم زَيْدَان

الإِهْدَاءُ الأَخِير

إِلَى النَّجْمِ المُنِيرِ، شَبِيهِي بِالرُّوحِ، وَصَدِيقِي الوَحِيدِ

عَبْدُاللّهِ قُصّار

يَا مَنْ كَانَ حُضُورُكَ فِي حَيَاتِي نُورًا يَهْدِينِي فِي ظُلُمَاتِ الطَّرِيقِ، وَيَا مَنْ كَانَتْ كَلِمَاتُكَ مَلْجَأً لِرُوحِي حِينَ ضَاقَتْ بِهَا الدُّنْيَا. أَنْتَ لَيْسَ مُجَرَّدَ صَدِيقٍ، بَلْ أَخٌ لَمْ تَلِدْهُ لِي الحَيَاةُ، وَرُوحٌ تُشْبِهُ رُوحِي فِي كُلِّ شَيْءٍ.

لَكَ مِنِّي كُلُّ الحُبِّ وَالامْتِنَانِ، لِأَنَّكَ كُنْتَ وَتَزَالُ القَلْبَ الَّذِي يَفْهَمُنِي دُونَ حُرُوفٍ، وَالعَيْنَ الَّتِي تَرَى نَقَاءَ نَفْسِي حِينَ يَعْجِزُ العَالَمُ عَنْ فَهْمِي.

و إِلَى الَّذِينَ ظَلُّوا رَغْمَ تَبَدُّلِ الفُصُولِ، وَالَّذِينَ لَمْ تَهُزَّهُم رِيَاحُ المَسَافَاتِ وَلَا صَقِيعُ الأَيَّامِ القَاسِيَةِ. أَنْتُمْ الوُجُوهُ الَّتِي لَمْ أَفْقِدْ فِيهَا نَفْسِي، وَالذِّكْرَيَاتُ الَّتِي لَا تَخْذُلُنِي حِينَ يَخْذُلُنِي كُلُّ شَيْءٍ. بَيْنَ ضَحِكَاتِنَا المُتَشَابِكَةِ وَأَحَادِيثِنَا الَّتِي لَمْ تَنْتَهِ، أَدْرَكْتُ أَنَّ الصَّدَاقَةَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ كَلِمَةٍ، بَلْ وَطَنٌ يُحْتَضَنُ فِيهِ القَلْبُ دُونَ خَوْفٍ.

إِلَى جَنَى الجَارِحِي وَمَرَام صَلَاح وَإِسْتَبْرَق اللَّيْث وَآدَم عَادِل

اَلْمُقَدِّمَةُ

فـي عـام ٣٠٤٧م، لـم يبـقَ مـن أمجـاد الحضـارات سـوى أطـلالٍ صـامتةٍ ورمـادٍ يحمل رائحةَ الحروبِ التي أحرقت الأرضَ .

كانـت النهايـةُ كارثيـةً؛ إذ تحالفـت أمـمُ الظـلام تحـت رايـةٍ واحـدةٍ، متحـدةً بقـوةٍ لـم يسـبق لهـا مثيـل، فأشـعلتْ حروبًـا إلكترونيـةً ونوويـةً أهلكـت البشـر ودمـرت المدن، حتى صار الكوكبُ نفسه يلفظُ أنفاسَه الأخيرة.

لـم تكـن تلـك الحـروبُ مجـرد صـراعاتٍ للسـيطرة، بـل كانـت إبـادةً جماعيـةً، ومحوًا للتاريخ، وإعادةَ تشكيلٍ لقوانين الحياةِ ذاتها.

وبعـد عقـودٍ مـن الفوضـى، لـم يـنجُ مـن هـذا الخـراب إلا مملكتـان: إحـداهما تـؤمنُ باللهِ، والأخرى ترفضُه.

لعقـودٍ احتـدمت بينهمـا حـربٌ لا رحمـةَ فيهـا؛ اسـتنزفت الأرواحَ وانهمـرت الـدماءُ كالمطر.

لكـن فـي النهايـة، تفككـت المملكـةُ غيـرُ المسـلمة، وانقسـمت إلـى دويـلاتٍ صـغيرةٍ ضـعيفةٍ، تصـارعت فيمـا بينهـا كوحـوشٍ جائعـةٍ، بينمـا بقيـت عيونهـا مركـزةً علـى العـدوِّ الأكبـر: داريـن، آخـر مملكـةٍ مسـلمةٍ صـمدت أمـام ضـرباتِ الزمنِ وسهامِ الأعداء.

لقـرونٍ، ظلـت داريـن حصـنًا منيعًـا، تقاتـلُ ببسـالةٍ وتخـوضُ المعـاركَ بشـجاعةٍ، وسيوفُ جنودها تلمعُ تحت شمسِ النصر.

لكن المجدَ لا يدوم، والحصونُ التي لا تُحمى من الداخل تنهارُ من تلقاءِ نفسها؛ ففي حين كانت الدويلاتُ المتصارعة تنهشُ بعضها البعض، تسلّلَ العدوُّ الحقيقيُّ إلى الداخل.

بدأ الوهنُ ينخرُ في أسسِ دارين، وتُحاكُ المؤامراتُ خلفَ الجدرانِ، وتنسجُ الخيانةُ خيوطَها بين العروشِ.

اشتعلت الفتنُ كالنارِ في الهشيم، وأصبحت المملكةُ التي صمدت أمام أعدائها مهددةً بالسقوطِ من داخلها.

لم تكن النهايةُ وليدةَ لحظةٍ، بل كانت سلسلةً من الأحداثِ المتشابكةِ تراكمت ببطءٍ حتى أوصلت المملكةَ إلى حافةِ الهاوية.

واليوم، لم يبقَ سوى رمادٍ لدولةٍ كانت يومًا أعظمَ ممالكِ الأرض، ووسط هذا الرمادِ بدأتْ حكايةٌ جديدةٌ؛ حكايةٌ لم تُكتب نهايتها بعد، لكنها وحدها ستحددُ مصيرَ ما تبقى من إرثِ المسلمين.

وهنا تبدأ قصتنا...

في زوايا المدينةِ القديمةِ، وقبل أن يُخطّب الليلُ في سماءِ دارين، كان هناك صوتٌ من الماضي يُحكي قصةَ رجلٍ كان يومًا قائدًا عسكريًا يُعتمدُ عليه في ساحاتِ المعارك.

كان سليم، ذو الملامحِ الحادةِ والعيونِ الثاقبةِ، قائدًا في الجيشِ الملكيِّ، رمزًا للشجاعةِ والنزاهة. تُروى عنه حكاياتُ الانتصارِ والبطولةِ، إلا أن قلبه مع مرور الزمنِ تعبَ من دماءِ الحرب، فبدل أن يبني المستقبلَ بسيوفٍ، رأى أنّه يجب أن يُعيدَ إلى الناس ما فقدوه من إنسانيةٍ وإيمان.

قبل عدةِ سنواتٍ، وفي زحامِ معاركِ الظلالِ والفساد الذي اجتاحَ البلاط، توجهَ سليم إلى السلطانِ إدريسَ بطلبٍ صريحٍ:

«ألا يا سلطان، هل يمكن أن تُسرِّحَني من جيشِ دارين؟ فقلبي لم يعد يجدُ في الحربِ ملاذَه، وإن روحي لتَتشُدُ عهدًا جديدًا يُعيدُ للنور بريقَه!»

لكن السلطانَ إدريسَ، الغارقَ في مشروعاتِ الحداثةِ وبالأخصِّ بناءَ دارِ الأوبرا التي كان يراها رمزًا للتجديد، رفض ذلك الطلبَ حينها قائلاً:

«لن يُفقَدَ لنا فخامةُ الجيشِ يا سليم، وما زال أمامنا مستقبلٌ ننتظره. ولعلَّ يومَ الأوبرا هو يومُ استبشارٍ جديد.»

وهكذا بقي سليم بين سيفٍ من الماضي وحلمٍ بالحرية، ينتظر يومَه الذي لم يكن بعيدًا بعدُ.

الفصل الأول| سِرَابُ الْحَدَاثةِ

وقف السلطان إدريس على شرفته العالية، يتأمل جموع الناس في الساحة الكبرى أمام القصر. كان الليل قد بسط عباءته، والمشاعل تضيء المدينة بزهو كاذب، كأنها تلمع كسراب في صحراء القيم.

اليوم، يُعلن تدشين دار الأوبرا الجديدة، التي شُيدت على أنقاض المسجد القديم، في قلب العاصمة دارين.

نزل السلطان إدريس من علیائه، محاطًا بحاشيته، مرتديًا ثيابًا غربية الطراز مطرزة بخيوط ذهبية، وعلامات الرفاهية تلمع على ثوبه كأنها تهمس بأسرار الثراء والانفصال عن الواقع. بينما خلفه وقف مستشاره المخلص أمير شاه، ذو الملامح الحادة والنظرات الثاقبة التي تخفي وراءها حساباتٍ لا تُحصى.

تقدم إدريس إلى المنصة، ممدود اليدين كما لو كان يفتح صفحة جديدة في تاريخ المملكة، صفحةً يرى فيها نفسه بطلًا للحداثة، لكنها صفحةٌ قد تكون مكتوبة بحبر الوهم.

هتف بصوت عالٍ:

« الشعب! لقد آن لدارين أن تنهض من ظلام الماضي! اليوم، نشهد عصرًا جديدًا، حيث تُمحى آثار الجمود وتُستبدل بمجد الحداثة والتطور!»

ارتفعت الهتافات، لكن في وسط الجموع، كانت العيون تحمل شكوكًا وألمًا من الماضي. هناك، كان سليم يقف بهدوء، مرتديًا عباءة بسيطة رغم

عظمته الروحية، يحمل في نظراته ذكريات أيام سابقة كان فيها قائدًا عسكريًا لا يُضاهى. بجانبه وقف زاهد، يهمس له بمرارة وهزيمة:

« الأوبرا بُنيت على أنقاض بيت الله، والناس يهللون لنسيانهم ما فقدوه من قيم.»

أجاب سليم بصوت منخفض حافل بتلك الذكريات:

«ليس المسجد وحده ما هُدم، بل انكسرت جذور الإيمان في قلوبنا منذ زمن بعيد. الحداثة التي يبشرون بها ليست سوى سرابٍ يخفي تحته جفاف الروح.»

وبعد انتهاء الاحتفال، دعا السلطان إدريس كبار القوم إلى قاعة المجلس الفخم، المزينة بالستائر المخملية والشمعدانات الذهبية التي تلمع كأنها تستهزئ بفقر الشعب. كان المكان يشع بالفخامة، لكن في أعين سليم، كان المشهد بمثابة مسرح للغرور والادعاء.

جلس السلطان إدريس في صدر المجلس، وعلى مقربة منه جلس مستشاره أمير شاه، ينظر إلى سليم بنظرة تحسب وتحدٍ.

بدأ إدريس الحوار قائلاً، مع لمحة من السخرية:

«سليم، لقد سمعت منذ زمن بعيد أنك طلبت أن تتسرح من جيش دارين، لأن قلبك لم يعد يحتمل ضجيج المعارك، ألم تكن تلك الأيام قد مضت، أم هل ترى أن الحرية تكمن في ترك سلاحك خلفك؟»

ارتسمت على وجه سليم ملامح الهدوء المصقول، فكان رده واثقًا:

«لقد طلبت، يا مولاي، لأنني رأيت أن حروبنا لا تُبنى بسيف يُقطع الهواء، بل بفكر يُعيد بناء النفوس. لكن حينها رفضت، لأنك كنت منغمسًا في مشروعاتك، وخصوصًا في بناء دار الأوبرا التي تُنسي الناس ما فقدوه من قيم.»

لم يخفِ السلطان إدريس تحفظه على كلمات سليم، فجاء رده بنبرة تحمل مزيجًا من التحدي والازدراء:

«أعلم جيدًا ما تعنيه كلماتك يا سليم، لكن دار الأوبرا ليست مجرد مبنى، بل هي رمز للتجديد. وإن كان لديك شوق للحرية، فالآن وقد انتهت أعمال الأوبرا، فلا مانع من أن تقضي في استقلالك. ولكن احذر أن تُفقد المملكة بغيابك.»

نظر سليم إلى إدريس بعينين تلمعان بحكمة الماضي، ثم قال بصوت هادئ يحمل وعودًا بثقل الأيام:

«الاستقلال ليس هروبًا من المسؤولية، بل هو استعادة لكرامة الأمة. الرياح لا تجرف من له جذور في الأرض، وأنا لن أكون عبئًا على وطنٍ فقد روحه.»

تبادلا النظرات، حيث تلاعب الظلال ضوء القناديل، وظل صدى الحديث يتردد في القاعة، ممزوجًا بأمل خافت ووجع من الماضي.

بعد خروجه من قاعة المجلس، سار سليم مع زاهد في أزقة المدينة القديمة.

كان الطريق ضيقًا، والظلال تلتهم زوايا الأزقة، تفوح منها رائحة الفقر واليأس، كأنها شهادة صامتة على إخفاقات الحكم.

وقفا عند ساحة صغيرة يعمها الصمت، حيث كان شيخ عجوز يجلس على الأرض، يمد يده طلبًا للصدقة، وامرأة تحمل طفلًا نحيلًا تئن من جوع خانق.

همس زاهد بحزن:

«انظر يا سليم، هذا هو الشعب الذي قال إدريس إنه يقوده إلى الحداثة. لكن أين القيم حين تهلك الروح؟»

رد سليم بنبرة حالمة، تعكس صدى معارك ماضية:

«إنها ليست معركة ضد الأعداء الظاهرين، بل معركة ضد الظلام الذي أفسد نفوسهم. وما بدأناه في أيام السيف، يجب أن يُختتم بفجر جديد يحمل نور الحق.»

بينما كان سليم يستعرض ذكرياته ويستشرف مستقبلًا مجهولاً، شعر بأن قسوة الواقع تستدعي قرارًا لا مفر منه.

مملكة دارين لم تعد مجرد وطن تحت سيطرة سلطان منغمس في زينته الحديثة، بل أصبحت مسرحًا لتلاشي الإيمان وترحال القلوب.

في أعماق الليل، وفي صمت الأزقة المظلمة، كان سؤال سليم يتردد:

«هل ستظل جذورنا صامدة، أم أننا سنضطر للرحيل بحثًا عن أرض تستحق النور؟»

وهكذا انطلقت رحلة سليم نحو الحرية، رحلة قد تحمل في طياتها ولادة حضارة جديدة، مستمدة من عبق الماضي وإرادة لا تلين في مواجهة تحديات الغد.

الفصل الثاني| أُمَّةٌ تَائِهَةٌ

بينما لا تزالُ أصداءُ كلماتِ سليمَ تتردّدُ في أنحاءِ العاصمةِ دارينَ، ينحدرُ الليلُ ليَنْسجَ معاناةً جديدةً في شوارعِ المملكةِ المُنهَكة.

وفي زقاقٍ ضيقٍ من أحياءِ دارينَ القديمةِ، حيث اختفتْ أضواءُ الاحتفالاتِ وتركتْ خلفَها أنينَ اليأسِ، تنبعثُ رائحةُ الخبزِ المُتعفّنِ كمرآةٍ لوضعٍ لا يُطاق.

تقدّمَ سليمُ بخُطواتٍ وئيدةٍ، مُثْقَلًا بذكرياتٍ لا تُمحى. وبينما كان يمضي في طريقِهِ، انتابتهُ ذكرى تتهادى أمامَ عينيهِ: ميدانُ المعركةِ؛ هذا اليومُ الذي وقفَ فيه زاهدٌ، صديقُهُ الوحيدُ، ذلك الجنديُّ الشابُّ، بثباتٍ مدهشٍ أمامَ جحافلِ الأعداءِ.

حينها، رأى سليمُ زاهدًا يقفُ كالجبلِ، رغمَ اندفاعِ القذائفِ والمجانيقِ، وغَلَفَ الدخانُ الكثيفُ المكانَ حولهما، فانطلقَ سليمُ دون تردُّدٍ وأنقذَهُ من وَشْكِ الموتِ.

كانت تلك اللحظةُ المضيئةُ من التاريخِ العسكريِّ بينهما قد نُقِشَتْ في قلبِ زاهدٍ، وأقسمَ لهُ بأن يظلَّ قائمًا على خدمةِ سليمَ، وأن لا يفرقَ بينهما سوى الموتِ. فيما أصبحتْ تلك الذكرى جسرًا يربطُ بينهما على مدى السنينِ.

وفي تلك اللحظةِ التي تَبُثُّ فيها المدينةُ عبقَ الذكرياتِ المؤلمةِ، وقفَ سليمُ لوهلةٍ على رصيفٍ مُطِلٍّ على ضواحي دارينَ، حيث التقطتْ عيناهُ مشاهدَ الألمِ من أحياءٍ اجتاحها البؤسُ؛ ضواحٍ شهدتْ احتراقَ كتبٍ قيّمةٍ، تلك التي

كانت تُوقدُ فجرَ العلمِ والمعرفةِ، لكنها الآن تذوبُ في لهيبٍ مُدَمِّرٍ، لتدفئَ بعضَ القلوبِ بدخانِها في عجزٍ مُطْلَقٍ عن استعادةِ حضارتها.

دخلَ سليمُ المقهى العتيقَ، ذاك الملاذُ الذي ما زال يحتفظُ بعبقِ الماضي رغم ثقلِ الحاضرِ، فوجدَ صفيَّةَ جالسةً في زاويةٍ مُعْتِمَةٍ.

كانتْ صفيَّةُ، ابنةُ الأستاذِ عبدِ الرحمنِ، الذي هو رمزَ المبادئِ والقيمِ التي ضحى لأجلها في سبيلِ نشرِ الحقِّ وتصدِّي لسُلْطانِ إدريسَ الجائرِ.

رمقتهُ بعتابِ نظراتٍ، وفي عينيها انعكستْ صورةُ والدها، ذلك الرجلُ الذي كرَّسَ حياتَهُ للعلمِ، وهي التي ترى في سليمَ استمرارًا لمسيرتِهِ، في روحِ النضالِ والتفاني.

فقد كانتْ تحملُ بين طيَّاتِها حزنًا عميقًا لرحيلِ المبادئِ التي كانتْ ترتكزُ عليها، وترى الآن كيف انطفأتْ تلك القيمُ في قلوبِ الناسِ.

بادرَ زاهدٌ، و صوتهُ يرتجفُ بين الغضبِ واليأسِ، بأن يبدأَ الحوارَ قائلًا:

«لقد أصبحَ الوضعُ في دارينَ أسوأَ مما تخيَّلنا؛ الضرائبُ التي فرضها إدريسُ لسدِّ ديونهِ من مشاريعَ الحداثةِ تلك تُقتلُ كلَّ همَّةٍ، والناسُ باتتْ تُفضِّلُ الصمتَ خوفًا من فقدانِ لقمةِ عيشٍ لا تنتهي.»

تعلَّقتِ الكلماتُ في أرجاءِ المقهى، قبل أن تتكسَّرَ بصوتِ صفيَّةَ، التي نظراتُها كانتْ تحملُ مزيجًا من الحزنِ والإصرارِ:

«كنتُ أحلمُ بأن يُضيءَ والدي، الأستاذُ عبدُ الرحمنِ، طريقَ الحقِّ في قلوبِنا، لا أن يُهدمَ المسجدُ الذي كان يقفُ على منبرِهِ يُخاطبُ صدورَ الناسِ أملًا أن يُوقظَ أرواحَهم. لكن اليومَ، تبدو المبادئُ وكأنها ذابتْ في لهيبِ الزمنِ. ليس فقط في كلماتِنا، بل حتى في شوارعِ ضواحي داريَنَ؛ الكتبُ القيِّمةُ التي كانتْ تحفظُ إرثَ علمِنا وتُخطُّ مفاتيحَ المستقبلِ تُحرَقُ، لنتركَنا نَدفأُ بدخانِها دون روحٍ ولا علمٍ.»

استجمعَ سليمُ قواهُ، وكانتْ نبرتُهُ هادئةً تحملُ صدى التجاربِ المُرَّةِ:

«أنا لا أرفضُ التغييرَ، يا صفيَّةُ، بل أتوقُ إلى أن يُصحوَ الناسُ من سُباتِهم. لقد تعلَّمتُ من والدِكِ، الأستاذِ عبدِ الرحمنِ، أن النضالَ لا يُبنى بالسيفِ وحدهِ، بل بفكرٍ ينبضُ بالإيمانِ. واليومَ، ونحنُ نحاولُ إعادةَ بناءِ ما تهدَّمَ، ولكن يبقى السؤالُ: هل نستعيدُ كرامتَنا بالإصلاحِ، أم سنُعيدُ تعريفَ مصيرِنا بالرحيلِ؟»

في تلك اللحظاتِ التي ملأها الصمتُ الثقيلُ، كانتْ شموعُ المقهى تتراقصُ بخفَّةٍ على جدرانٍ شاحبةٍ، تنقلُ ظلالَ الحنينِ إلى زمنٍ كانتْ فيه الكلماتُ تصنعُ الفرقَ، والأملُ يُرسمُ على الوجوهِ رغم الألمِ.

وبينما اختتمتِ الساعةُ لحظاتِها الأخيرةَ، ظلَّ السؤالُ يتردَّدُ كنداءٍ مُستميتٍ في أذهانِهم:

«هل تُعَدُّ الكلماتُ سلاحًا يُغيِّرُ مصيرَنا، أم أن القرارَ الجريءَ هو ما سينقذُنا من هذا العذابِ؟»

وهكذا، غادرتِ المجموعةُ المقهى، وكلٌ منهم يحملُ في قلبِهِ عبءَ الماضي وطموحًا بإشعالِ شعلةٍ جديدةٍ تُعيدُ للأرضِ قيمَها وكرامتَها، كما كان يفعلُ والدُ صفيّةَ، الأستاذُ عبدُ الرحمنِ، الذي لن يُنسى.

الفصل الثالث| على حافّةِ السقوط

مع اقترابِ الفجرِ، بدأت ملامحُ يومٍ جديدٍ تتشكّلُ في سماءِ دارين، لكن هذا اليومَ لم يحملْ معهُ بشائرَ خيرٍ، بل جاء برياحِ تغييرٍ عاصفةٍ لم يُدرِكْ أحدٌ مدى قوّتِها؛ تغيُّرٌ قد يجلِبُ الأملَ، أو يُغرِقُ المملكةَ في ظلماتٍ لا عودةَ منها.

في قصرِ دارين، تحت قُبّةٍ شاهقةٍ زُيّنَتْ جدرانُها بنقوشٍ ذهبيةٍ تُحاكي أمجادَ الماضي، جلسَ إدريسُ على عرشِه الفاخرِ.

كان القصرُ يشِعُّ بالفخامةِ، لكن في زواياهُ الخافتةِ تلوّحُ مظاهرُ الواقعِ المُنهَكِ؛ إذ أُتيحتْ للوزراءِ والتجّارِ فرصةُ الحديثِ، لكنّ تعليقاتِهم بدتْ خافتةً ومشحونةً بقلقٍ صامتٍ.

بينما كان إدريسُ يتأمّلُ مخطوطاتٍ تفصّلُ مشاريعَهُ الجديدةَ، ارتفعتْ أصواتُ الوزراءِ، فدخلَ الوزيرُ أميرُ شامٍ قائلًا بصوتٍ متردّدٍ:

«مولاي، هناكَ همساتٌ بينَ التجّارِ والعامّةِ بأنّ الضرائبَ الأخيرةَ أثقَلَتْ كاهِلَ الناسِ، حتى إنّ بعضَهُم بدأ يتحدّثُ عن العصيانِ.»

رغمَ أنّ إدريسَ كان جالسًا في قلبِ القصرِ، إلّا أنّ نوافذَهُ المكشوفةَ أظهرتْ مشاهدَ من شوارعِ دارين؛ حيثُ ترتسمُ وجوهُ البؤسِ والغضبِ في كلِّ زاويةٍ.

نظرَ إدريسُ إلى أميرِ شامٍ ببرودٍ، ثم قالَ وهو يتكئُ على مسندِ عرشِه، ملامحُه تعكسُ ثباتًا وازدراءً:

«وما المشكلةُ في ذلك؟ العوامُ دائمًا يشتكونَ، ثمَّ يعودونَ إلى أعمالِهم حينَ يُدركونَ أنَّهُ لا خيارَ لهُم.»

تردَّدَ أميرُ شامٍ قليلًا، ثم أضافَ بحذرٍ:

«لكن... يا مولاي، هناكَ من يُحرِّضُهُم في الخفاءِ. يُذكَرُ أنَّ سليمًا، القائدَ السابقَ، وبعضَ أتباعِهِ يشكِّلونَ تهديدًا لاستقرارِ الحُكمِ.»

ارتسمتْ على وجهِ إدريسَ لمحةُ سُخريةٍ عند سماعِ اسمِ سليمٍ، فمرَّرَ يدَهُ على طرفِ عباءتِهِ الفاخرةِ وقالَ:

«إذَن، عادَ سليمٌ ليُمارِسَ دورَ المُصلِحِ؟ ألم يطلُبِ الاستقالةَ لأنَّهُ لم يعُدْ يريدُ القتالَ؟»

ثمَّ ابتسمَ ابتسامةً باردةً، مدركًا أنَّ الأمورَ لم تعُدْ تحتَ سيطرتِهِ التامةِ، فقالَ بنبرةٍ مهدِّدةٍ:

«لا يهمُّني ما يقولُهُ، لكنَّني لن أسمَحَ لهُ بأن يُفسِدَ خططي. سأعطيهُ فرصةً ليتراجعَ... وإن لم يفعلْ، فسأُريهِ أنَّ دارينَ لا تحكُمُها الأوهامُ.»

ثمَّ التفتَ إلى أحدِ الحُرَّاسِ وقالَ بلهجةِ آمرٍ:

«أرسِلوا في طلبِ سليمٍ، أريدُ أن أتحدَّثَ معهُ بنفسي.»

في تلكَ اللحظةِ، ألقى إدريسُ نظرةً على المدينةِ من نافذتِهِ العريضةِ.

كانَ يرى الأسواقَ المُزدحمةَ، لكنَّهُ لم يعُدْ يسمعُ سوى أصواتِ التذمُّرِ المكتومِ، وكأنَّ شيئًا كان يغلي تحتَ السطحِ.

فـي سـاحةِ السـوقِ الكبـرى بوسـطِ داريـنَ، كـان الزحـامُ يعكِـسُ حالـةً مـن الفوضى، حيثُ اختلطَتْ أصواتُ التجّارِ بمناداةِ الباعةِ معَ صرخاتِ اليأسِ.

وقفَ زاهدٌ وسطَ الحشودِ، يتحدّثُ بصوتٍ ثابتٍ:

«كـم سـنظلُّ نقبَـلُ بهـذا الظُّـلمِ؟! داريـنُ لـم تكـنْ هكـذا! كنّـا أقويـاءَ، كنّـا أعزّاءَ! لكنّهُم حوّلونا إلى عبيدٍ يدفعونَ ثمنَ مجدِهم!»

فجأةً، انطلقتْ صرخةٌ من أحدِ التجّارِ، صوتُهُ مبحوحٌ من الغضبِ:

«وما الحلُّ إذَن؟ هل سنثورُ؟! كلُّ من يرفَعُ صوتَهُ يُقتَلُ أو يُنفى!»

تقـدّمَتْ صـفيةُ بخُطـى ثابتـةٍ وسـطَ النـاسِ، عيناهـا تتألّقـانِ بشُـعلةٍ مختلفـةٍ، وقالتْ بحزمٍ:

«الحـلُّ لـيس بـالثورةِ العميـاءِ، بـل باسـتعادةِ مـا فقـدناهُ مـن إيمـانٍ! لا نحتـاجُ إلـى أعدادٍ ضخمةٍ، بل إلى قلوبٍ ثابتةٍ تعرفُ طريقَها!»

سادَ صمتٌ مهيبٌ، وارتفعتْ نظراتُ البعضِ نحوَها بدهشةٍ.

و فـي تلـكَ اللحظـةِ، ظهـرَ سـليمٌ قادمًـا مـن زُقـاقٍ جـانبيٍّ، ملامحُـهُ الجـادةُ تُعبّـرُ عـن عزْمِهِ، وعيناهُ تعكسانِ جوابًا على السؤالِ الذي يملأُ صدورَهم.

«لقد وصلتني رسالةٌ من القصرِ... الحاكمُ يريدُ لقائي.»

نظرَ إليهِ زاهدٌ بقلقٍ، وقالَ:

«وهل ستذهبُ؟ أنتَ تعرفُ أنّهُ قد يكونُ فخًّا.»

ابتسمَ سليمٌ بسُخريةٍ وقالَ:

«إن كانَ فخًا، فهذا يعني أنّهُم يخشَونَنا أكثرَ ممّا كنّا نظنُّ.»

بينما تنظرُ إليهِ صفيةُ بعينَيْنِ متسائلتَيْنِ، فتسألهُ بحذرٍ:

«لكنْ لماذا الآن؟ لماذا يريدُ التحدُّثَ معكَ بعدَ كلِّ هذا؟»

شدَّ سليمُ عباءتَهُ السوداءَ حولَ جسدِهِ وقالَ بصوتٍ صارمٍ:

«لأنَّ إدريسَ يعلمُ أنَّ كلمتَنا بدأتْ تُسمعُ... وهو لا يُحبُّ أن يسمعَ أحدٌ غيرَهُ في هذهِ المملكةِ.»

وقفتْ صفيةُ تُحدّقُ بهِ، بينما اجتاحَ عقلَها مشهدٌ لم تفارقْهُ قطُّ...

ذلكَ اليومُ الذي استُدعيَ فيهِ والدُها، الأستاذُ عبدُ الرحمنِ، إلى القصرِ، ولم يعُدْ منهُ إلّا جثّةً هامدةً.

كانَ يحملُ نفسَ النظرةِ الواثقةِ حينَ غادرَ، تمامًا كما يبدو سليمٌ الآن. ارتجفَ قلبُها للحظةٍ... هل يُعيدُ التاريخُ نفسَهُ؟

وبينما كانتِ الشموعُ الخافتةُ تومضُ بآخرِ أنفاسِها، ظلّتْ كلماتُ سليمٍ تتردّدُ في رأسِها:

«هل تُعَدُّ الكلماتُ سلاحًا يُغيّرُ مصيرَنا، أم أنَّ القرارَ الجريءَ هو ما سينقذُنا من هذا العذابِ؟»

وهكذا، غادرَ سليمٌ، بينما كانتْ صفيةُ تقفُ مكانَها، يملؤها إحساسٌ مرعبٌ بأنّها ربما تشهدُ للمرّةِ الأخيرةِ.

في قصرِ دارين، بينما كانتِ الشمسُ تودّعُ النهارَ، صبغتْ أشعتُها الذهبيّةُ أروقةَ القصرِ بلونٍ قاتمٍ.

كان القصرُ هادئًا على غيرِ العادةِ، وكأنّ جدرانَهُ تستعدُّ لسماعِ كلماتٍ ستحسمُ مصيرَ مملكةٍ بأسرِها.

في قاعةِ العرشِ، جلسَ إدريسُ منتظرًا، ظهرُه مستندٌ إلى وسائدٍ فاخرةٍ، وعلى وجههِ ابتسامةٌ هادئةٌ، لكنها تخلُو من أيِّ دفءٍ.

دخلَ سليمٌ القاعةَ بخطواتٍ ثابتةٍ، متجاهلًا نظراتِ الحراسِ التي كانتْ تحملُ مزيجًا من الريبةِ والعداءِ.

كانتْ خطواتُهُ لا توحي بتردُّدٍ، بل بحزمٍ خالٍ من الخوفِ.

عندما توقّفَ أمامَ إدريسَ، انحنى بخفّةٍ، لكنّهُ لم يُخفِ نظراتِهِ الثاقبةَ التي لم تفارقْ عينيَ الحاكمِ.

تحدّثَ إدريسُ بصوتٍ ناعمٍ، لكنّهُ كانَ يحملُ في طيّاتِهِ تهديدًا غيرَ معلَنٍ:

«مضى وقتٌ طويلٌ، يا سليمُ. كنتُ أتوقّعُ أنّكَ ستتعمُ بحياتِكَ بعدَ تخلّيكَ عن الجيشِ، لكنْ يبدو أنّكَ لم تستطعْ مقاومةَ الحنينِ للمعاركِ.»

أجابهُ سليمٌ بصوتٍ هادئٍ، لكنّهُ لم يخلُ من الحدةِ:

«المعاركُ لم تتركني، يا مولاي، لكنّني لم أتِ اليومَ لأتحدّثَ عن الماضي، بل عن المستقبلِ.»

رفعَ إدريسُ حاجبَيْهِ بدهشةٍ مصطنعةٍ، وقالَ بنبرةٍ ساخرةٍ:

«وهل لديكَ رؤيةٌ لمستقبلِ دارين يا سليمَ ؟»

أجابَ سليمُ بثباتٍ، عيناهُ لا تزيغانِ عن وجهِ إدريسَ:

«لديَّ رؤيةٌ لما قد تُصبِحُ عليهِ دارينُ إنْ استمرَّ هذا الطريقُ... الخربُ.»

لم تتغيَّر ملامحُ إدريسَ، لكنَّهُ مالَ إلى الأمامِ قليلًا وقالَ بصوتٍ منخفضٍ:

«الخربُ...؟ لأنَّني أحاولُ أنْ أجعلَ مملكتي عظيمةً؟ لأنَّني أبني للمستقبلِ؟»

نطقَ سليمُ كلَّ كلمةٍ بثباتٍ واضحٍ، وكأنَّهُ يوجِّهُ سِهامًا إلى قلبِ الحاكمِ:

«العظمةُ ليستْ في المباني وحدَها، بل في قلوبِ الناسِ. وما تفعلُهُ الآنَ لا يُبني مستقبلًا، بل يحفرُ قبرًا لدارين.»

سادَ صمتٌ ثقيلٌ في القاعةِ، كأنَّ جدرانَها ابتلعتِ الهواءَ للحظاتٍ.

لمعتْ عينا إدريسَ للحظةٍ، ثم تراجعَ في مقعدِهِ وأرخى كتفيهِ، وكأنَّهُ يدرسُ الكلماتِ التي سمعَها.

و بعدَ لحظاتٍ ليست بطويلةٍ، ابتسمَ ابتسامةً هادئةً تحملُ في طيَّاتِها وعيدًا وقالَ:

«أعجبتني صراحتُكَ، يا سليمُ. لذلكَ سأمنحُكَ فرصةً واحدةً... انسَ كلَّ هذا، وعدْ إلى حياتِكَ، وسأمنحُكَ منصبًا مرموقًا في بلاطي.»

لم يرفَّ جفنُ سليمٍ، ولم تتغيَّر ملامحُهُ وهو يُجيبُ بصوتٍ لا رجعةَ فيهِ:

«دارينُ ليستْ للبيعِ.»

تبدَّلتْ ابتسامةُ إدريسَ، وضاقتْ عيناهُ قليلًا، ثم قالَ بهدوءٍ مصطنعٍ، لكنَّ كلَّ كلمةٍ كانتْ تحملُ تهديدًا صريحًا:

«إذن... لستَ بحاجةٍ إلى حمايتي بعدَ الآنَ... أليسَ كذلك؟»

فهمَ سليمٌ التهديدَ الذي ألقاهُ إدريسُ، لكنه لم يُظهِرْ أيَّ أثرٍ للخوفِ.

فقط انحنى قليلًا، ثم استدارَ ليغادرَ القاعةَ، وهو يعلمُ أنَّ هذهِ لم تكنْ نهايةَ اللقاءِ... بل بدايتَهُ.

وفي تلكَ اللحظةِ، عندما وقعتْ عينا صفيةَ عليهِ وهو يخرجُ من القصرِ، عادَ إليها شبحُ الذكرى... شبحُ اليومِ الذي استُدعيَ فيهِ والدُها إلى هذا القصرِ نفسهِ، ولم يخرجْ منهُ إلَّا جثةً هامدةً.

التفتَتْ إلى الخلفِ بسرعةٍ، وكأنَّها تحاولُ كسرَ نبوءةِ الماضي، لكنَّ قلبَها كانَ يهمسُ لها بشيءٍ لم تجرؤْ على النطقِ بهِ...

«هل رأيتهُ للمرةِ الأخيرةِ؟»

خرجَ سليمُ من القصرِ، يُمزِّقُ صمتَ الممرَّاتِ بصوتِ خطواتهِ الواثقةِ، لكنَّ داخلهُ كانَ يعجُّ بالعواصفِ.

كانَ يعلمُ أنَّهُ لم يعُدْ مُجرَّدَ معارضٍ، بل أصبحَ تهديدًا حقيقيًا لحُكمِ إدريسَ.

وبينما كانَ الهواءُ الباردُ يصفَعُ وجهَهُ عندَ بوابةِ القصرِ، شعرَ بنظراتِ صفيةَ تخترقُهُ... نظرةٌ تحملُ مزيجًا من الأملِ والخوفِ، وكأنَّها تستجدي الزمنَ ألَّا يُعيدَ مأساتَهُا القديمةَ.

في تلكَ الليلةِ، لم تنَمْ دارين، كانَ هناكَ شيءٌ في الأفقِ، شيءٌ لم تتَّضحْ معالمُهُ بعدُ، لكنَّ الجميعَ كانَ يشعرُ بهِ... كأنَّ المدينةَ بأسرِها تقفُ على حافةِ السقوطِ.

الآن، لم يعُد هناك مجالٌ للحياد، ولم يعُد الصراعُ مخفيًا بين الجدرانِ.

إدريسُ يرى في سليمَ عدوَّهُ الأخطرَ، وسليمُ يدركُ أنَّ الوقتَ ينفدُ، وأنَّ المواجهةَ لم تعُد خيارًا بل مصيرًا محتومًا.

في دارين، تَصطفُّ الظلالُ خلفَ أصحابِها، تُراقبُ، تنتظرُ اللحظةَ التي سينفجرُ فيها كلُّ شيءٍ.

و حين يُشرِقُ الفجرُ القادمُ، إمَّا أن تنهضَ دارينُ من رمادِها... أو تبتلعَ أبناءَها للأبد.

الفصل الرابع| رَحِيلٌ قَسْرِيٌّ

مـع بـزوغِ أولِ خُيـوطِ الفَجـرِ، اجتمـعَ سـليمُ وزاهـدُ و صـفيةُ فـي المقهـى ذاتـه، حيثُ اعتادوا اللقاءَ، لكنَّ هذه المرةَ كانَ الصمتُ أثقلَ من أيٍّ وقتٍ مضى.

كانـت المدينـةُ مـن حـولهم تُشـبهُ رجلًـا يحتضـرُ، تُكـابرُ للبقـاءِ، لكنَّهـا تعلـمُ أنَّهـا لم تعُدْ موطنًا لمن يؤمنونَ بالحقيقةِ.

نظرَ سليمُ إلى رفاقِه، ثم قالَ بصوتٍ منخفضٍ لكنهُ حاسمٌ:

«لقـد حاولنـا كـلَّ شـيءٍ... لكـنَّ لا أحـدَ يريـدُ أن يسـتمع، دارينُ لـم تسـقطْ لأنَّ إدريسَ أقوى، بل لأنَّها لم تعُدْ تريدُ أن تنهض.»

أخفـضَ زاهـدُ رأسَـهُ للحظـاتٍ، ثـمَّ رفـعَ نظـرَهُ إلـى صـفيةَ، التـي كانـتْ تُحـدِّقُ فـي كـوبِ قهوتِهـا البـاردِ. لأولِ مـرةٍ منـذ البدايـةِ، لـم يكـنْ فـي عينيهـا ذاكَ البريـقُ العنيدُ.

ثم أخيرًا، همستْ:

«إذن... لم يبقَ لنا سوى الرحيل.»

لـم يكـنْ هنـاكَ خـلافٌ هـذهِ المـرةَ، لـم يكـنْ هنـاكَ جـدالٌ، فقـط، صـمتُ اتفـاقٍ مُرٌّ، لكنهُ كانَ الحقيقةَ الوحيدةَ التي تبقَّتْ لهم.

وقفـوا فـي السـاحةِ المهجـورةِ، حيـثُ بقايـا القِبـابِ المهدَّمـةِ والجـدرانُ المتشـقِّقةُ تحكي حكايةَ دارينَ التي لم تعُدْ.

مـرَّ سـليمُ بأصـابعِه علـى جـدارٍ قـديمٍ، ثـمَّ قـالَ وكأنَّـهُ يُخاطـبُ أطـلالَ المدينـةِ نفسَها:

«لقـد سـقطتْ داريـنُ... لـيسَ بغـزوٍ خـارجيٍّ، بـل بفقـدانِها الإيمـانَ فـي قلـوبِ أهلِها.»

زاهدُ، الذي كانَ ينظرُ إلى انعكاسِ وجهِه في مرآةٍ مكسورةٍ، تمتمَ بحزنٍ:

«تعبنا من النضالِ في مدينةٍ أغلقتْ أبوابَها أمامَ الحقيقة.»

أمـا صـفيةُ، فكانـتْ الوحيـدةَ التـي لـم تنظـرْ إلـى الـدمارِ مـن حولِهـا، بـل رفعـتْ رأسَها نحوَ السماءِ، ثم قالتْ بثباتٍ:

«الأرضُ ليسـتِ الـوطنَ، الـوطنُ هـو الفكـرةُ، وإذا لـم تعُـدْ هـذهِ الأرضُ تحتضنُها... سنأخذُها إلى حيثُ تستحقُّ أن تعيش.»

فـي أحـدِ الأزقَّـةِ المظلمـةِ، اجتمـعَ الثلاثـةُ مـع مجموعـةٍ صـغيرةٍ مـن الرجـالِ والنسـاءِ، الذينَ قرَّروا أنْ يتركوا دارينَ معهم.

لـم يكونـوا جيشًـا، ولـم يكونـوا كثيـرينَ، لكـنَّهُم كـانوا البـذرةَ الأخيـرةَ لشـيءٍ لـم يُولدْ بعدُ.

جلسَ سليمُ على حجرٍ باردٍ، وأخذَ نفسًا عميقًا قبلَ أنْ يقولَ:

«لقـد انتهـتْ رحلتُنـا هنـا... لكـنْ لـم تنتـهِ فكرتُنـا، سـندفنُ الماضـي هنـا، لكـنَّ الإيمانَ بما نحملُهُ سيقودُنا إلى أرضٍ تستحقُّه.»

ألقى زاهدُ نظرةً على المدينةِ خلفَهُ، ثمَّ قالَ بصوتٍ مُثقلٍ:

«سنبني وطنًا جديدًا، وطنًا لا يُشترى ولا يُباع، وطنًا يكونُ الحقُّ فيهِ أقوى من السيفِ.»

ابتسمتْ صفيةُ، لكنَّ في عينيها ظلَّ شيءٌ من الألمِ، وقالتْ:

«الفكرةُ لا تموتُ، لكنها تحتاجُ إلى أرضٍ نظيفةٍ لتنمو.»

وفي تلكَ اللحظةِ، تجلّت الذكرى المرّةُ؛ ذكرى والدِ صفية، الأستاذِ عبدِ الرحمنِ، الذي استُدعي إلى القصرِ يومًا ولم يُخرجْ منهُ إلّا جثّةً هامِدةً، تاركًا خلفَهُ صدى خَيَانَةِ الزمنِ.

كانت صفيةُ تشعرُ بذلكَ الألمِ يندبُ وجودَها، لتُقرِّرَ أنَّ الرحيلَ هو السبيلُ للإعادةِ ولادةِ الروحِ والكرامةِ.

عندَ أطرافِ المدينةِ، حيثُ تلتقي الأرضُ بالسماءِ، وقفوا جميعًا للحظةٍ أخيرةٍ، يُراقبونَ شمسَ الصباحِ وهي تُنيرُ الأنقاضَ برفقٍ، كأنّها تُودّعُهم بهدوءٍ.

لكنْ قبلَ أنْ يخطُوا خارجَ دارينَ، تملّكهم صمتٌ ثقيلٌ... لحظةُ مواجهةٍ مع أنفسِهم، مع ما تركوهُ خلفَهم، ومع ما ينتظرُهم أمامَهم.

سليم وقفَ يُحدّقُ في الأفقِ، لكنّهُ لم يكُنْ يرى الشمسَ، بل يرى نفسَهُ في الماضي، ذلكَ الجنديَّ الشابَّ الذي قاتلَ لأجلِ دارينَ يومًا.

يومَها، كانَ يؤمنُ أنَّ السيفَ وحدَهُ يحميها، أمَّا الآنَ، فهو يُدركُ أنَّ القوةَ الحقيقيةَ ليستْ فيما يُمسكُهُ في يدِهِ، بل فيما يحملُهُ في قلبِهِ. واليوم، قرَّرَ أنْ يحميها بالطريقةِ الوحيدةِ التي تبقَّتْ لهُ... أنْ يرحل.

بينما زاهد نظرَ إلى سلاحِهِ المُعلَّقِ على خاصرتِهِ.

كانَ دائمًا يرى في الحديدِ قوَّتَهُ الوحيدةَ، لكنَّ اليومَ، لم يعُدْ يبدو لهُ أكثرَ من قطعةِ معدنٍ باردةٍ، لا قيمةَ لها أمامَ عزيمةِ الروحِ.

تأمَّلهُ للحظاتٍ، ثمَّ أدارَ ظهرَهُ لهُ، كأنَّهُ يتركُ خلفَهُ وهمَ القوةِ الكاذبةِ.

أمَّا صفيةُ، فبقيتْ صامتةً، لكنَّ عقلَها كانَ في مكانٍ آخرَ... كانَ في الماضي، في ذلكَ اليومِ الذي وقفتْ فيهِ عندَ بوابةِ القصرِ، تُودِّعُ والدَها. لا تزالُ تتذكَّرُ كلماتهُ الأخيرةَ لها:

«يا صفيةُ، إذا سقطتْ داريَنُ، فلا تسقطي معها... احملي نورَها حيثُ يستحقُّ أن يكون.»

واليومَ، وهي تغادرُ بنفسِها، شعرتْ أنَّها لا تهربُ... بل تُكمِلُ ما لم يستطعْ والدُها إكمالَهُ.

كان زاهدُ آخرَ منْ تكلَّمَ، إذ استدارَ نحوَ سليمٍ وسألَهُ بصوتٍ خافتٍ، لكنَّهُ محمَّلٌ بالرجاءِ:

«هلْ سنعودُ يومًا؟»

توقَّفَ سليمُ للحظةٍ، وكأنَّ الإجابةَ لم تكنْ في كلماتِهِ، بل في قلبِهِ، ثمَّ قالَ أخيرًا:

«ربما... عندما يكونُ الإيمانُ مغروسًا في نفوسِ الناس.»

لمْ يزِدْ أحدُهم كلمةً أخرى. فقطْ، تبادلوا نظراتٍ أخيرةً، ثمَّ استدارَ كلٌّ منهم ليمضي في طريقِهِ.

لم يكنْ هناكَ وداعٌ تقليديٌّ، لأنَّهُم لم يكونوا بحاجةٍ إليهِ.

كانوا يعلمونَ أنَّ الطريقَ الذي يسلكونَهُ واحدٌ، حتى وإنْ سلكَهُ كلٌّ منهم وحدَهُ.

وهكذا، رحلوا... تاركينَ خلفَهُم مدينةً لم تعُدْ مدينتَهُم، لكنَّهُم حملوا معهم الحقيقةَ الوحيدةَ التي لا تموتُ.

وهكذا انتهتْ قِصَّةُ سليمِ بنِ خالدٍ الدَّاريِّ، أحدِ قادَةِ جَيْشِ دارينَ، ورَحيلِهِ ومَنْ مَعَهُ قَبْلَ تَهَدُّمِ آخِرِ بِلادِ المُسْلِمِينَ.

لكنَّ الأقدارَ ليستْ دائمًا كما تَبْدو... فَهَلْ يَكونُ هذا الوَداعُ الأَخِيرُ، أَمْ أنَّ الإيمانَ يَوْمًا ما سيُعيدُ دارينَ مِنْ رَمادِها إِلى أَيَّامِ مَجْدِها القَديمِ؟

تمت بحمدالله | ١٤ مارس ٢٠٢٥م